منهج الغزالي في فهم القرآن

د. رضوان جمال حسين الأطرش*

لما رأى الإمام الغزالي عن قرب ممارسة الناس، وكيف يتعاملون مع القرآن الكريم، باعتباره كتاب الله ﷻ أشرف الكتب وأعظمها، وجد أن هممهم مقتصرة على التعامل الظاهري، وخصوصاً من خلال الرسوم الظاهرة، كالنطق الفصيح والتلاوة المتقنة بأحكام التجويد، واتخاذ القراءة وسيلة للتكسب، والشهرة والانشغال عن معانيه الباطنة العظيمة بعلوم أخرى كالفقه والكلام والشعر.

ففي كتاب آداب تلاوة القرآن وهو الكتاب الثامن من ربع العبادات، قسم الغزالي الكتاب إلى أربعة أبواب، الباب الأول بعنوان: في فضل القرآن وأهله وذم المقصرين في تلاوته. وأما الباب الثاني فقد جاء بعنوان: في آداب التلاوة في الظاهر وقد عدها عشرة، والباب الثالث جاء معنوناً بـ"في الأعمال الباطنة عند التلاوة"، ثم جاء الباب الرابع ليضعه بعنوان: في فهم القرآن وتفسيره بالرأي وغيره.

هذا التقسيم وبهذا الشكل، يدل على أن الغزالي قد تأثر فعلاً وبشكل واضح وصريح بمبدأ الصوفية، فاهتمامه بتقسيم الأعمال والعبادات إلى ظاهرة وباطنة، يدل على تبنيه الكامل لمبدأ التصوف. فهو يرى أن هذا التقسيم ضرورة لا بد منها لأرباب الحقائق، لأن الناس انصرفوا عن الباطن إلى الظاهر من الأمور المتعلقة بالقرآن، من خلال الاهتمام زائد بالرسوم الشكلية كالقراءة بالتجويد والنطق السليم والانشغال عن المعاني الباطنية إلى علوم الفقه والكلام

* الأستاذ المساعد، بقسم دراسات القرآن والسنة، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، taallam@yahoo.com

والشعر وغيرها، فهذه في تصوره هي تلاوة الغافلين، وهي مذمومة باعتبارها تتخلف عن العمل به، ذلك أن القرآن ينبغي لقارئه أن يتلقاه بالعظمة والهيبة والإجلال، وهو هنا يستشهد بقول أنس بن مالك ﷺ: "رب تال للقرآن والقرآن يلعنه"، وبقول أحدهم: "إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه" وهو لا يعلم يقول: ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[1] وهو ظالم نفسه، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ﴾[2] وهو منهم. وبقول أبي سليمان الداراني: الزبانية أسرع إلى حملة القرآن الذين يعصون الله ﷻ منهم إلى عبدة الأوثان حين عصوا الله ﷻ بعد القرآن[3]. وهو في هذا التأويل يمتدح شأن الصوفية والعارفين الذين اهتموا بالمعاني الباطنة دون الظاهر منها.

ولو دققنا النظر في الهدف الذي جعل الإمام الغزالي يتبنى هذا المنهج، أعني الاهتمام بالقراءة الباطنة للنصوص القرآنية، لوجدنا أنه يهدف إلى بناء النفس الإنسانية من الداخل، وهو أمر بحد ذاته ضروري، ولا يمكن الاستغناء عنه، وهو هدف رئيس لتكوين الأخلاقيات والأعمال الفاضلة، لأن كافة أشكال السلوك إنما هي تعبير عن محتوى الإنسان الداخلي، فإن لم تشكل الذات الداخلية للإنسان جيداً فلا يمكن ضمان سلوكيات خيرة، ولا يكون البناء الخارجي إلا هيكلاً خاوياً.

حملة الغزالي على علم الفقه لمعارضته علم التصوف:

لكنه وهو يتبنى علم الباطن[4] لبناء النفس من الداخل، حمل على العلوم التي تمنع من ذلك البناء، ووجدها تنحصر في الفقه والكلام والشعر، وهنا فقط نركز على علم الفقه باعتباره علماً دنيوياً في تصور الغزالي، يقول الغزالي: " اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامي المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما أراده

[1] سورة هود: ١٨.

[2] سورة آل عمران: ٦١.

[3] أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، تحقيق: سيد عمران، (القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٥هـ/١٩٩٢م) ج١، ص٣٦٠.

[4] هو علم العبد بحاله ومقامه من الله تعالى، أو هو علم بالإخلاص وآفات النفوس وتمييز لمة المَلَك من لمة الشيطان. انظر: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٢٦.

السلف الصالح والقرن الأول وهي خمسة ألفاظ: الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة فهذه أسام محمودة والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسامي عليهم"[1]. فهو يرى أن هذه العلوم قد حرفت مفاهيمها، لما نقلت إلى معان مذمومة لدرجة أن القلوب تنفر من أصحابها.

اللفظ الأول الفقه فقد حرف لما تخصص بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوي، والوقوف على دقائق عللها، واستكثار الكلام فيها، وحفظ المقالات المتعلقة بها، فمن كان أشد تعمقاً فيها وأكثر اشتغالاً بها يقال هو الأفقه. ثم ازداد تحريفه لما تحول من علم يهتم بالآخرة، إلى علم لا علاقة له بها. فهو يقول: "ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقاً على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب ويدلك عليه قوله ﷻ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ من كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[2] وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه، دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة فذلك لا يحصل به الإنذار والتخويف، بل التجرد له على الدوام يقسِّي القلب، ويترع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له[3].

وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[4] وأراد به معاني الإيمان دون الفتاوى[5].

فهو علم يقسي القلب، وخصوصاً لمن تجرَّد لتفريعاته المتعلقة بأمور الدين وليس الآخرة، فهو علم ألحقه الغزالي بعلوم الدنيا[6]. فقد كان الصحابة يتحرزون عن الفتوى، حتى كان كل منهم يحيل على صاحبه، وكانوا لا يحترزون إذا سئلوا عن علم القرآن، وطريق الآخرة[7].

---

[1] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٤٨.

[2] سورة التوبة: ١٢٢.

[3] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٤٨.

[4] سورة الأعراف: ١٧٩.

[5] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٤٩.

[6] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٠.

[7] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣١.

لكنه يعترف بإن علم الباطن غامض، والعمل به عسير، والتوصل به إلى طلب الولاية والقضاء والجاه والمال متعذر، فوجد الشيطان مجالاً لتحسين ذلك في القلوب، بواسطة تخصيص اسم الفقه الذي هو اسم محمود في الشرع[1]. ومن خلال تعرض الإمام الغزالي لآداب التلاوة، صرح في أكثر من موضع أن هناك هوة عميقة بين الفقهاء الذين اهتموا بظاهر النص، وأصبحوا محجوبين عن الحقيقة، وبين المتصوفة الذين اعتنوا بباطنه، فَهُم أرباب الحقائق.

وإذا أردنا أن تكتمل الصورة فلا بد من عرض لبعض الآراء المخالفة لفكرة الإمام الغزالي، التي قال بها علماء صوفيين أقطاب، منهم مثلاً الإمام الجنيد من قبل، حيث سار الغزالي على درب جديد مخالف لدرب الجنيد رحمه الله، حيث قال الجنيد: "مذهبنا هذا مقيد بالأصول: الكتاب والسنة، فمن لم يحفظ الكتاب، ويكتب الحديث، **ويتفقَّه**، لا يُقتدى به"[2]. وقال الشيخ الشعراني رحمه الله، في كتابه "كشف الغمة": "دوروا مع الشرع كيف كان، لا مع الكشف فإنه يخطيء، وينبغي إكثار مطالعة كتب الفقه، **عكس ما عليه المتصوفة الذين لاحَت لهم بارقة من الطريق فمنعوا مطالعة الفقه!** وقالوا: إنه حجاب، جهلاً منهم!" نقله ابن العماد الحنبلي في "شذرات الذهب" في ترجمة الشعراني"[3].

ومن العلماء الكبار ابن رجب الحنبلي فقد صب جام غضبه على من يتجاهل الشريعة، حيث قال رحمه الله في كتابه:"شرح حديث العلم": "وكثير ممن يدَّعي العلم الباطن، ويتكلم فيه ويقتصر عليه: يذمُّ العلمَ الظاهر الذي هو الشرائع والأحكام والحلال والحرام، ويطعن في أهله: ويقول: هم محجوبون وأصحاب قشور! وهذا يوجبُ القدحَ في الشريعة المطهرة والأعمال الصالحة التي جاءت الرسل بالحث عليها والاعتناء بها، وربما انحلَّ بعضهم عن التكاليف وادعى أنها للعامة، وأما من وصَلَ فلا حاجة به إليها، وأنها حجاب له! وهؤلاء كما قال الجنيد وغيره من العارفين: وصلوا ولكن إلى سقر. وهذا من أعظم خداع الشيطان وغروره لهؤلاء، لم يزل يتلاعب بهم حتى أخرجهم عن الإسلام. ومنهم من يظن أن هذا العلم الباطن لا

[1] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٥٠.

[2] انظر: أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري، **رسالة المسترشدين**، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: الأستاذ عبد الفتاح أو غدة، (حلب، القاهرة: دار السلام، ط٦، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص٨٢. نقله المحقق من إغاثة اللهفان للشيخ ابن القيم، ج١، ص١٢٥.

[3] انظر: المحاسبي، **رسالة المسترشدين**، ص٨٣. من كلام المحقق.

يُتَلقَّى من مشكاة النبوة، ولا من الكتاب والسنة! وإنما يُتلقَّى من الخواطر والإلهامات والكشوفات!! فأساؤوا الظنَّ بالشريعة الكاملة، حيث ظنّوا أنها لم تأت بهذا العلم النافع، الذي يوجبُ صلاحَ القلوب وقربَها من علّام الغيوب! وأوجب ذلك لهم الإعراضَ عما جاء به الرسول ﷺ في هذا الباب بالكلية! والتكلُّمَ فيه بمجرَّد الآراء والخواطر، فضلّوا وأضلّوا"[1].

فهذه حملة شديدة قام بها الجنيد والشعراني وابن رجب الحنبلي على المتصوفة الذين في ظنهم عطلوا علوماً كبيرة مثل الفقه والتفسير والشعر، وأرادوا تعطيل الشريعة وأحكامها من حلال وحرام، كيف لا وقد حكم الصوفية على الفقهاء والمفسرين وأهل الكلام والشعر بأنهم محجوبون وأصحاب قشور. هذه النظرة حكم عليها الشعراني والجنيد وابن رجب بأنها لا تعني إلا شيئاً واحداً لا ثاني له، هو التحلل من التكاليف بوصفها حالة ملازمة للعوام وليس للخواص.

وقد أصبح التصوف منذ القرن الثالث مميزاً على علم الفقه من ناحية الموضوع والمنهج والغاية.. ولاشك أنه كان لحركة تدوين العلوم الشرعية التي سبقت تدوين التصوف أثر في ذلك، على نحو ما يقول ابن خلدون: "فلما كتبت العلوم ودوِّنت، وألف الفقهاء في الفقه وأصوله، والكلام والتفسير وغير ذلك، كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم، فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك.."[2].

ويصف ابن خلدون المقابلة بين علمي الفقه والتصوف قائلاً: "وصار علم الشريعة على صنفين: صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا، وهو الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات. وصنف مخصوص بالقوم –الصوفية– في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها، والكلام في الأذواق، والمواجد العارضة في طريقها، وكيفية الترقي فيها من ذوق إلى ذوق، وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك"[3].

ولسنا هنا بصدد حملة ضد التصوف وأهله، فقد كان الحسن البصري متصوفاً عالماً ناسكاً عارفاً بالله، قائماً على حدوده، متمسكاً بشريعته. وكان إبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض من جهابذة الإسلام. كذلك كان الإمام المحاسبي من الرعيل الأول من الصوفية

[1] انظر: المحاسبي، **رسالة المسترشدين**، ص ٨٣-٨٤. من كلام المحقق.

[2] عبد الرحمن بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون، وهي مقدمة الكتاب المسمى: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط٨، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) ص٣٨٢.

[3] ابن خلدون، **المقدمة**، ص٣٨٢.

الصادقين، وكان إماماً في الحديث والفقه والكلام، وكان تصوفه الذي دوَّنه في كتبه قد راعى فيه ما جاء في الكتاب والسنة وأقوال الصحابة وأعمالهم بحسب علمه وفهمه، وما يوجد في كتبه شطحات أو شيئاً من التصوف الفلسفي، إنما يقوم تصوفه على الدعوة إلى تصحيح العلم والعمل ومراقبة الله وتزكية النفس[1]. والغزالي نفسه له كتب عظيمة في أصول الفقه كالمستصفى وغيره والذي يعد منهجاً لضبط حركة الفقه، يستعين به الفقهاء لاستنباط أحكامهم، وأمثال أبي محمد عبد القادر الجيلاني، وغيرهم كثير لا يحصى عددهم، ولهم كلام رصين، وحكم شافية، ومؤلفات قيمة في الأصول والفروع، وجميعهم إنما يصدرون في ذلك عن كتاب الله وهدي النبوة، فهؤلاء هم الصوفية حقاً، الصادقون قولاً وفعلاً.

ففي تصوري فإن التصوف الصحيح المقبول: تربية علمية وعملية وضرورة لا بد منها للنفوس، وهو علاج لكثير من أمراض القلوب، وغرس للفضائل واقتلاع للرذائل وقمع للشهوات وتدريب على الصبر والرضا والطاعات. وباختصار فإن التصوف مجاهدة للنفس ومحاولة لكبح شهواتها ونزعاتها الزائدة عن الحد، وحفظ للقلوب عن الغفلات. وقد جعل الإمام الجنيد باعتباره سيد الطائفة البغدادية — كما يعتبره ابن تيمية وغيره – عشر معانٍ للصوفية فقال حين سئل عنها: "التصوف: اسم جامع لعشرة معاني: التقلل من كل شيء من الدنيا عن التكاثر فيها، والثاني: اعتماد القلب على الله ﷻ من السكون إلى الإسبات، والثالث: الرغبة في الطاعات من التطوع في وجود العوافي، والرابع: الصبر عن فقد الدنيا عن الخروج إلى المسألة والشكوى، والخامس: التمييز في الأخذ عند وجود الشيء، والسادس: الشغل بالله ﷻ عن سائر الأشغال، والسابع: الذكر الخفي عن جميع الأذكار، والثامن: تحقيق الإخلاص في دخول الوسوسة، والتاسع: اليقين في دخول الشك، والعاشر: السكون إلى الله ﷻ من الاضطراب والوحشة. فإذا استجمع هذه الخصال استحق بها الاسم وإلا فهو كاذب"[2].

وهي كما قال الشيخ حسنين مخلوف: "التصوف معرفة لله ويقين، وتوحيد لله وتمجيد، وتوجُّه إلى الله وإقبال عليه وأعراض عما سواه، وعكوف على عبادته وطاعته، ووقوف عند حدوده، وتعبُّد بشريعته، وتعرُّض لنفحاته وهباته التي يخص بها أولياءه وأحبابه فضلاً منه

[1] انظر: المحاسبي، **رسالة المسترشدين**، ص٢٦. من كلام المحقق.

[2] http://www.alnilin.com/vb/showthread.php?t=15490

وكرماً، فهو علم وحكمةن وتبصرة وهداية، وتربية وتهذيب، وعلاج ووقاية، وتقوى وسلامة، وصبر وجهاد، وفرار من فتنة الدنيا وزينتها وابتعاد"[1].

لكن الذي نرفضه هو التصوف الزائف المنتحل لدى فرقة من الناس، أشربوا في قلوبهم فكر الباطنية الحُلُولية، وأظهروا ذلك حين لبسوا ثياب الصوفية، تلبيساً للعوام، فدسّوا في التصوف الإلحاد. وقد كشف خبثهم وأبطل تصوفهم كثير من العلماء وعلى رأسهم الإمام الجليل ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم رحمهم الله تعالى.

لكن الفائدة التي يمكن أن نذكرها للتصوف، ويذكر الدكتور أبو العلا عفيفي: أنه "لولا التصوف لكان الإسلام – كما فهمه المتزمتون من الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة – ديناً خالٍ من الروحانية العميقة، ومن العاطفة، وكانت عباداته ومعاملاته مجموعة جامدة من القواعد والأشكال والأوضاع، ومعتقداته مجموعة من التجريدات، أقل ما يقال عنها أنها تباعد بين العبد وربه، بدلا من أن تقربه إليه، وتورث صاحبها الشك والحيرة والقلق، بدلا من الطمأنينة واليقين"[2]. فالصوفية لم يشاركوا عامة المسلمين في نظرتهم إلى الدنيا، ولم يشاركوا الفقهاء أو المتكلمين في نظرتهم إلى الدين، ولم يشاركوا الفلاسفة في نظرتهم إلى الله والإنسان والعالم. ولهذا جاء التصوف الإسلامي وكأنه ثورة شاملة على هؤلاء جميعاً.

القراءة الصحيحة للقرآن عند الغزالي:

القراءة الصحيحة عند الغزالي كما أوضحها من خلال الباب الثاني المعنون: في ظاهر آداب التلاوة تعتمد على أمرين:

الأمر الأول: متعلق بالقارئ: أشار الغزالي أن على القارئ أن يلتزم ببعض الآداب قبل وأثناء التلاوة، منها:

١. أن يكون طاهراً، فالطهارة أربعة أقسام: طهارة القلب وطهارة البدن، وطهارة المكان، وطهارة الثوب. فلا يقرأ القرآن في حال الجنابة[3]، قال عثمان وحذيفة رضي الله عنهما: "لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن، وإنما قالوا ذلك، لأنها بالطهارة تترقى إلى

[1] حسنين مخلوف، تقريظ لكتاب رسالة المسترشدين للحارث المحاسبي، ص٨.

[2] http://www.sunnah.org/arabic/Afaaq.html

[3] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٢، ص٣٧٩.

مشاهدة المتكلم في الكلام. يقول أبو محمد الجريري: "وأما أهل الخصوصية (يعني الصوفية) فأكثر آدابهم في طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار"[١]. وبمشاهدة المتكلم دون ما سواه يكون العبد ممتثلاً لقوله ﷻ: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾[٢] فمن لم يره في كل شيء فقد رأى غيره[٣].

٢. أن يتوجه بقلبه وبدنه نحو القبلة: فذلك أمر نفسي يهيء القارئ باستعداد خاص لفهم معاني القرآن الكريم. هذا بالإضافة إلى أن يجلس جلوس المتواضعين. لكنه جوّز قراءة المضطجع وعلى غير وضوء، لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٤].

٣. القراءة أثناء الصلاة وفي المسجد: أفضل القراءة عند الغزالي أن يقرأ القارئ القرآن في الصلاة وفي المسجد[٥]، لأنه أشرف الأمكنة وأجمعها للنظافة، وقارئ القرآن هناك يحصل على فضيلة أخرى وهي فضيلة الاعتكاف، وينبغي أن يوقر القرآن فلا يقرأ على شوارع الطرق، بل في مجلس ساكن[٦]، لكنه جعل الأفضل قراءة القرآن بقيام الليل معللاً ذلك بأنه أفرغ للقلب[٧]. وفراغ القلب يحتاج إلى ثلاثة أشياء وإلا فلا: الزمان والمكان والإخوان، ومعناه أن الاشتغال بالقرآن في وقت حضور طعام أو خصام أو صارف من الصوارف مع اضطراب القلب لا فائدة فيه، فهذا معنى مراعاة الزمان، فيراعى حالة فراغ القلب له"[٨]. ثم ختم بالقول: إنه لا يقدر على الوفاء بحق حرمة القرآن في كل حال إلا المراقبون لأحوالهم[٩].

٤. الإسرار بالقراءة أفضل من الإجهار بها: أن على القارئ الإسرار بالقراءة لأن ذلك أبعد عن الرياء، كما أن الجهر يشوش على المصلين، أما إن كان في الليل ففي الجهر ما يطرد النعاس ويقلل من الكسل، ويرجو من جهره التسبب في إيقاظ نائم آخر[١٠].

---

[١] انظر: المحاسبي، **رسالة المسترشدين**، ص ٩. مقتبس من تقريظ الكتاب للشيخ حسنين محمد مخلوف.

[٢] سورة الذاريات: ٥٠.

[٣] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٧٧.

[٤] سورة آل عمران: ١٩١.

[٥] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٦١.

[٦] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٢، ص٣٧٨-٣٧٩.

[٧] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٦١.

[٨] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٢، ص٣٨١.

[٩] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٢، ص٣٧٩.

[١٠] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٦٦.

الأمر الثاني: متعلق بمقدار القراءة: وذلك من حيث الاستكثار منها والاختصار، فهو يقسم الناس من حيث مقدار ختماتهم للقرآن:

- فمن الناس من يختم القرآن في اليوم والليلة مرة.
- وبعضهم يختمه مرتين.
- وانتهى بعضهم إلى ثلاث.
- ومنهم من يختم القرآن في الشهر مرة: من يختم القرآن مرة كل شهر، فهو يعد من المقصرين في نظر الغزالي، وهو في نفس الوقت يجعل الانقطاع عن القرآن مصيبة في الدين عظيمة.

وأولى ما يرجع إليه في التقديرات قول رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه»[1]، معللاً ذلك بأن الزيادة عليه تمنع صاحبها الترتيل.

وبعد كل هذا أورد لنا درجتان معتدلتان وهما: ختمة في الأسبوع، والثانية: ختمتان في الأسبوع[2].

الأمر الثالث: أن يحزِّب القرآن حسب ختمته التي تناسبه، فقد حزَّب الصحابة ﷺ القرآن، أحزاباً. وذلك لأن التقسيم هذا يشجع القارئ على أن يختم القرآن بسرعة، فهو يضع خطة لتسهيل القراءة على القارئ. ولعله اعتمد على حديث عمر بن الخطاب ﷺ حين قال: قال رسول الله ﷺ: «من نام عن حزبه أو عن شيء منه، فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كُتِب له كأنما قرأه من الليل»[3].

فوِرْد تلاوة القرآن (كما يظهر من الحديث الشريف) في الليل أفضل من النهار، وذلك لغفلة الناس ونومهم وسكونهم، فمن عمل عملاً بين غافلين، كان أفضل ممن عمله بين من يفعل فعله. كما أن القراءة في الليل أبعد عن الرياء والسمعة. فالأوراد ترفع من مكانة العبد عند الله تعالى، وتصفي قلبه وتهيئه، لكي يستقبل بركات الله والإفادة من تجلياته ﷻ. وتزداد تلك البركات في جوف الليل لكن من نعم الله تعالى، أن من طرأ له طارئ يمنعه من تنفيذ ذلك

[1] حديث "من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه" أخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن عمرو، وصححه الترمذي في **سننه** في كتاب القراءات، باب ما جاء أن القرآن أنزل على سبعة أحرف. وقال: "هذا حديث حسن صحيح".

[2] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٦١-٣٦٢.

[3] أخرجه الإمام مسلم في **صحيحه**، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض.

الورد أحد الأيام، فاستدركه في صباح اليوم التالي بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كان كأنما قرأه في جوف الليل.

الأمر الرابع: الترتيل: لأن المقصود من القراءة التفكر والترتيل معين عليه. والترتيل[1] مستحب للتدبر، وهو أمر به تعالى بقوله: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾[2]. وهو يعني عدم العجلة بقراءة الْقُرْآن، بَلْ لا بد للقارئ أن يقْرَأهُ فِي مَهَل وَبَيَان، مَعَ تَدَبُّر الْمَعَانِي.

الأمر الخامس: البكاء: يعد البكاء مع القراءة عند الغزالي مستحباً، لقوله ﷺ – وهو يستشهد بحديث إسناده ضعيف –: «اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»[3] ذلك أن البكاء عند قراءة القرآن صفة العارفين وشعار عباد الله الصالحين.

المقصد والهدف من هذه التقسيمات:

١. أن يحرص المؤمن على بقاء الصلة بالقرآن، فالعلاقة يجب أن تكون متينة وقوية.

٢. أن يظهر عيب المهذرمين هذرمتهم بالقرآن. مستشهداً بقول عائشة رضي الله تعالى عنها لما سمعت رجلاً يهذر القرآن هذراً: "إن هذا ما قرأ القرآن".

٣. بيان أن المقصود من القراءة هو التفكر والتدبر، والترتيل معين عليه، ولذلك "نعتت أم سلمة رضي الله عنها قراءة رسول الله ﷺ فإذا هي قراءة مفسرة حرفاً حرفاً"[4]. وقال ابن عباس ﷺ لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب إلي من أن أقرأ القرآن هذرمة.

٤. إن الغزالي لا يعفي العجمي الذي لا يفهم معاني القرآن، من أن يقرأ بالترتيل والتؤدة لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيراً في القلب[5].

٥. بيان القراءة الصحيحة للناس من خلال مزجها ومصاحبتها بموضوع يتعلق بالجانب النفسي والتربوي وهو البكاء، حيث يعد ذلك مستحباً، وأن من لم يستطع البكاء فعليه

---

[1] التَّرْتِيل لغة: التَّنْضِيد وَالتَّنْسِيق وَحُسْن النِّظَام.

[2] سورة المزمل: ٤.

[3] أخرجه ابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص بإسناد جيد، وقال العراقي: "إسناده ضعيف". قلت: وفيه إسماعيل بن رافع قال الحافظ في التقريب: "ضعيف الحفظ". انظر: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٦٣.

[4] أخرجه الترمذي في **سننه**، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء كيف كانت قراءة النبي ﷺ. وقال: "هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ليث بن سعد عن ابن أبي مليكة عن يعلى بن مملك عن أم سلمة".

[5] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٦٣.

بالتحزُّن، فمن الحزن ينشأ البكاء، حيث يتذكر تقصيره في جنب الله وتفريطه في الواجبات الملقاة على عاتقه. فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فإن ذلك أعظم المصائب[1]. فالتباكي في تصور الغزالي مجلبة للحزن، ولكن لا يرفع صوته بالبكاء وهو قادر على ضبط نفسه[2].

٦. الملاحظ في منهج الغزالي رحمه الله، أنه يأتي بالأمر المستحب فيحض عليه، ثم يأتي بالمفهوم الذي يخالفه، ويكثر من مساوئه. فإن تكلم عن الترتيل مثلاً أشاد بفضله وأكثر من الآثار الواردة عليه، ثم جاء بما يناقضه وهو الهذرمة، فبين أنه لا قيمة لقراءة فيها هذرمة، وهو بهذا لم يعذر حتى العجم من قراءة القرآن بالترتيل والتؤدة، لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيراً في قلب القارئ.

ثم ذكر في الباب الثالث والمعنون في أعمال الباطن في التلاوة، أن هذه الأعمال عشرة: هي فهم أصل الكلام، ثم التعظيم، ثم حضور القلب، ثم التدبر، ثم التفهم، ثم التخلي عن موانع الفهم، ثم التخصيص، ثم التأثر، ثم الترقي، ثم التبري.

فالأول والثاني والثالث: فهم عظمة الكلام وتعظيم المتكلم، وحضور القلب وترك حديث النفس، فالله سبحانه وتعالى تلطف بعباده حين أوصل إليهم معاني كلامه الذي هو صفة قديمة غير مخلوق، وهو بهذا يعترض على المعتزلة القائلين بخلق القرآن "والذين ظنوا أن القرآن هو الحروف والأصوات، وبنوا عليها أنه مخلوق، لأن الحروف والأصوات مخلوقة، وما أجدر هؤلاء بأن يرجموا أو ترجم عقولهم"[3]؛ إذ لولا رحمة الله لعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله ﷻ، ولكنه أفهمهم ذلك بوسيلة صفات نفسه.

وعليه فلا بد للقارئ عند البداية بتلاوة القرآن الالتزام بما يلي:

١. أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم.

٢. ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر (وهو ما أسميناه في مادة الخطاب القرآني قدر الخطاب).

---

[1] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٦٣-٣٦٧.

[2] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٢، ص٣٨٣.

[3] حجة الإسلام محمد بن محمد أبو حامد الغزالي، **جواهر القرآن ودرره**، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط٥، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ١٩.

٣. إن في تلاوة كلام الله ﷻ غاية الخطر فإنه تعالى قال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[١] أي من طهرت قلوبهم من الرجس واستنارت بنور التعظيم والتوقير، ولهذا يقول الغزالي: "وكما لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد، فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب"[٢]. مما يجب على القارئ أن يحضر بقلبه أثناء التلاوة وأن يترك حديث النفس، ويستشهد بقراءة بعض السلف الذين إذا قرأوا الآيات القرآنية دون حضور قلب أعادوا قراءتها، فالحضور يأتي نتيجة للتعظيم وعدم الغفلة وعدم الانشغال بغيره عنه. وإن استمع لآيات الل تتلى "فعليه أن يقلل من الالتفات إلى الجوانب، مشتغلاً بنفسه ومراعاة قلبه، ومراقبة ما يفتح الله تعالى له من رحمته في سره، ساكن الظاهر، هادئ الأطراف متحفظاً عن التنحنج والتثاؤب، ويجلس مطرق الرأس، كجلوسه في فكر مستغرق لقلبه، متماسكاً عن سائر الحركات على وجه التصنع والتكلف والمراءاة، ساكتاً عن النطق"[٣].

والرابع والخامس: التدبر والتفهم: المقصود من القراءة التدبر، قال تعالى: قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَابِ﴾[٤] وحدُّه في اللغة: النظر في عواقب الأمور[٥]، وطريقه الترتيل، وهذا يقتضي النظر إلى ما تصير إليه عاقبة الآيات في الجملة، وهذا يدفع للعمل بما تم تدبره لاستحضار العاقبة، وفي هذا تعلق واضح بأصل المعنى اللغوي للتدبر الدال على نظر في ما يؤول إليه آخر أمره، فتدبر القراءة يقصد منه إلحاقه بالعمل.

والغزالي جعل تدبر القرآن بالطرق التالية:

١. النظر في عواقب الآيات، وما تصير إليه في الجملة.

٢. لا بد من إتباع قراءة القرآن بعمل، وبما تم تدبره لاستحضار العاقبة، لأنه الأمر الذي تدعو إليه عاقبته عند من تأمله، لا بد من تحويله إلى عمل.

٣. الترديد: من لم يستطع ذلك فعليه بالترديد، إلا أن يكون في وراء إمام. وهو ما فعله رسول الله ﷺ، فعن أبي ذر ﷺ قال: قام رسول الله ﷺ بنا ليلة، فقام بآية يرددها، وفي رواية:

---

[١] سورة الواقعة: الآيات ٧٧- ٧٩.

[٢] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٦٩.

[٣] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٢، ص٣٨١-٣٨٢.

[٤] سورة ص: ٢٩.

[٥] جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، **أساس البلاغة**، (بيروت: دار بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م) ص١٨٢.

فقرأ بآية حتى الصباح يركع بها ويسجد بها، وهي: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1]،[2]. فلما أصبح، قلت: يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال: "إني سألت ربي ﷻ الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً"[3].

أما التفهُّم أو التعقُّل والتأمُّل للآيات فحدُّه: **أن يستوضح من كل آية ما يليق بها**"[4]. ولقد كانت بداية مقومات الصوفية الذاتية هي: التأمل في آيات القرآن، ومحاولة استكشاف أسرارها العميقة، واقتناص مراميها البعيدة. ذلك أن القرآن يشتمل على ذكر صفات الله ﷻ وذكر أفعاله، وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام، وذكر أحوال المكذبين، وكيف أهلكوا، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار. وعلى القارئ أن يتفهَّم صفات الله كصفات أنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر. فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها[5].

وأما أفعاله ﷻ فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها، فليفهم التالي منها صفات الله ﷻ، إذ الفعل يدل على الفاعل، وأفعاله تعالى تدل على عظمته، فينبغي أن يشهد في العقل الفاعل دون الفعل، فمن عرف الحق رآه في كل شيء، إذ كل شيء فهو منه وإليه، وبه وله، فهو الكل على التحقيق، ومن لا يراه في كل ما يراه، فكأنه ما عرفه، ومن عرفه عرف أن كل شيء ما خلا الله باطل، وأن كل شيء هالك إلا وجهه[6].

وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام، فإذا سمع منها كيف كُذِّبُوا وضُرِبوا، وقُتِل بعضهم، فليفهم منه صفة الاستغناء لله ﷻ عن الرسل والمرسل إليهم، وأنه لو أهلك جميعهم، لم يؤثر في

---

[1] سورة المائدة: ١١٨.

[2] حديث أبي ذر قام رسول الله ﷺ فينا ليلة بآية يرددها وهي إن تعذبهم فإنهم عبادك أخرجه النسائي في الافتتاح باب الترديد، وأخرجه ابن ماجه بسند صحيح في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في القراءة في صلاة الليل.

[3] رواه أحمد في **مسنده** في مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث أبي ذر الغفاري رضي الله تعالى عنه، وانظر: إسماعيل بن كثير، **مختصر تفسير ابن كثير**، اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني، (بيروت: دار القرآن الكريم، ط٧، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م) ج١، ص٥٦٥.

[4] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٧٠.

[5] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٧٠.

[6] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٧١.

ملكه شيئاً، وإذا سمع القارئ نصرتهم في آخر الأمر، فليفهم قدرة الله ﷻ وإرادته لنصرة الحق[1].

وأما أحوال المكذبين كعاد وثمود، وما جرى عليهم، فليكن فهمه منه: استشعار الخوف من سطوة الله ونقمته، وليكن حظه منه الاعتبار في نفسه، وأنه إن غفل، وأساء الأدب، واغتر بما أمهل، فربما تدركه النقمة، وتنفذ فيه القضية[2].

وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما في القرآن فلا يمكن استقصاء ما يفهم منه لأن ذلك لا نهاية له وإنما لكل عبد بقدر رزقه فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[3] ولذلك قال علي ﷺ: "لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب"[4]. فالغرض مما ذكرناه التنبيه على طريق التفهيم لينفتح بابه، فأما الاستقصاء فلا مطمع فيه، ومن لم يكن له فهم ما في القرآن، ولو في أدنى الدرجات، دخل في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ﴾[5]، والطابع هي موانع الفهم[6].

السادس: التخلي عن موانع الفهم

فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحجب، أسدلها الشيطان على قلوبهم، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن.

موانع وحجب الفهم عند الغزالي أربعة[7]:

أولها: أن يكون الهم منصرفاً إلى تحقيق الحروف، بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وُكِّل بالقرَّاء، ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله ﷻ، فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف، يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه، فهذا يكون تأمله مقصوراً على مخارج الحروف، فأنَّى تنكشف له المعاني، وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعاً لمثل هذا التلبيس.

---

[1] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٧١.

[2] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٧١.

[3] سورة الكهف: ١٠٩.

[4] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٧١.

[5] سورة محمد: ١٦.

[6] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٧١ - ٣٧٢.

[7] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٧٢ - ٣٧٣.

وهذا الجانب المهاري يرفضه الغزالي ويعده مانعاً من موانع الفهم، رغم أن علماء القراءات والتجويد عدوه فرض عين على كل مسلم قارئ للقرآن. لكن الأنسب في هذه المسألة هو الاعتدال، حيث لا إفراط ولا تفريط، فكيف أفهم كتاب الله وأتدبره من غير قراءة صحيحة.

ثانيها: أن يكون مقلداً لمذهب معين، وتعصّب له دون تبصّر، فهذا شخص قيَّده تقليده، ولا يمكن أن يخطر بباله غير معتقده، وبهذا فإن بدا له معنى من معاني القرآن المختلفة مع تقليده، حمل عليه شيطان التقليد حملة، وقال له: كيف يخطر هذا ببالك، وهو خلاف معتقد آبائك. ولمثل هذا قالت الصوفية: إن العلم الحقيقي هو الكشف والمشاهدة بنور البصيرة. والتقليد يمنع من الحصول على هذا العلم، وهو مانع من الفهم والكشف.

إن ما تبناه الغزالي من أن التعصب لمذهب معين يمنع الفهم السليم للآيات أمر صحيح، ولكن قوله: إن العلم الحقيقي هو الكشف، أمر عام بحاجة إلى نظر وتدقيق وتقييد، وحاجته إلى التقييد ضرورة عند ابن خلدون، حيث قال: "ثم إن هذا الكشف لا يكون صحيحاً كاملاً عندهم (أي عند الصوفية) إلا إذا كان ناشئاً عن الاستقامة، لأن الكشف قد يحصل لصاحبِ الجوع والخَلوة، وإن لم يكن هناك استقامة كالسحرة وغيرهم من المرتاضين. وليس مرادُنا إلا الكشف الناشئ عن الاستقامة، ولما عُني المتأخرون بهذا النوع من الكشف، تكلموا في حقائق الموجودات العلوية والسفلية، وحقائق الملكِ والروحِ والعرش والكرسي وأمثال ذلك، وقصُرت مدارك من لم يشاركهم في طريقهم عن فهم أذواقهم ومواجدهم في ذلك. وأهل الفتيا بين منكر عليهم ومسلِّم لهم. وليس البرهان والدليل بنافع في هذه الطريق، ردّاً وقبولاً، إذ هي من قبيل الوجدانيات"[1].

ثالثها: أن يكون مستسلماً لشهواته، مصرّاً على ذنوبه، مبتلىً بهوى في الدنيا مطاع، فذلك قلبه مظلماً صدئاً، ذلك أن الاستسلام للشهوات أعظم حجاب للقلب، وأكبر مانع للفهم. وكلما خَـــفَّ عن القلب حجاب الشهوة، اقترب من تجليات المعاني. وقد شرط الله ﷻ الإنابة في الفهم والتذكير، قال ﷻ: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[2] وقال ﷻ: ﴿وَمَا

[1] ابن خلدون، **المقدمة**، ص٣٨٣.

[2] سورة ق: ٨.

يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾[1]. ومن آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة فليس من ذوي الألباب، ولذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب.

رابعها: أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وأن ما وراء ذلك تفسيرٌ بالرأي. فهذا أيضاً من الحجب العظيمة المانعة لفهم القرآن عند الغزالي. والمدقق يجد أن الغزالي يعيب بشدة على الذي يحصرون مدارس التفسير واتجاهاته بالتفسير بالمأثور، وأنه لا تفسير إلا ما نقل عن الصحابة أو التابعين وخصوصاً ابن عباس ومجاهد.

السابع والثامن والتاسع والعاشر: التخصيص والتأثر والترقي والتبري:

يحث الغزالي القارئ لكتاب الله ﷻ أن يفهم أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن قرأ أمراً أو نهياً، قَدَّر أنه المنهي والمأمور وحده، وإن سمع وعداً أو وعيداً كانت نفسه هي التي سمعت الوعد والوعيد، وهكذا في كل مواضيع الخطاب القرآني. والقصد من كل ذلك العبرة والفائدة لنفسه وفؤاده في الصبر والتثبيت.

ولذلك أمر الله تعالى جميع عباده شكر الله على نعمة إنزال الكتاب، قال ﷻ: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2]. ولهذا كان على القارئ أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره. فإذا قال الله ﷻ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾[3] ثم أتبع ذلك بأربعة شروط: ﴿لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾[4]. تأثر بقوله تعالى، وأصبح جل همه أن يطبق هذه الشروط، علَّه ينال رحمة الله بشرط منها[5].

عنوان تأثر العبد بالتلاوة:

أولاً: أن يتصف القارئ بصفة الآية المتلوة: قال الغزالي: لا بد للقارئ "أن يصير بصفة الآية المتلوة فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت، وعند

[1] سورة غافر: ١٣.
[2] سورة البقرة: ٢٣١.
[3] سورة طه: ٨٢.
[4] سورة طه: ٨٢.
[5] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٧٤.

التوسع ووعد المغفرة، يستبشر كأنه يطير من الفرح، وهكذا... ولما قال رسول الله ﷺ لابن مسعود ﷺ اقرأ علي حديث أنه قال لابن مسعود اقرأ علي الحديث تقدم في الباب قبله قال فافتتحت سورة النساء فلما بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا﴾[1] رأيت عينيه تذرفان بالدمع، فقال لي: "حسبك الآن"[2]. وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية.

ولهذا روى عن ابن عباس قال: قال أبو بكر ﷺ: "يا رسول الله قد شبت، قال: شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت"[3]. وفي رواية قال ﷺ: "شيبتني هود وأخواتها"[4].

ولقد كان من الصحابة في الخائفين من خر مغشياً عليه عند آيات الوعيد، روى الغزالي في إحيائه أن عمر ابن الخطاب سمع رجلاً يقرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾[5]، فصاح صيحة وخر مغشياً عليه، فحمل إلى بيته، فلم يزل مريضاً في بيته شهراً"[6].

ومنهم من مات في سماع الآيات. يقول الغزالي: "روي أن زرارة بن أوفى – وكان من التابعين — كان يؤم الناس بالرقة فقرأ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾[7] فصعق ومات في محرابه رحمه الله"[8].

وسمع الشافعي قارئاً يقرأ: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[9] فغشي عليه"[10].

ثانياً: أن يعلم القارئ أن الذي لا يؤثر فيه القرآن صاحب قلب قاس: قال الغزالي بعد أن ضرب أمثلة على الوجد والتأثر: "وبالجملة لا يخلو صاحب القلب عند وجد عند سماع

---

[1] سورة النساء: ٤١.

[2] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب التفسير باب: فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء.

[3] أخرجه الترمذي في **سننه**، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الواقعة.

[4] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٢، ص٣٧٤.

[5] سورة الطور: الآيتان ٧– ٨.

[6] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٢، ص٣٧٥.

[7] سورة المدثر: الآيتان ٨– ٩.

[8] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٢، ص٣٧٥.

[9] سورة المرسلات: الآيتان ٣٥– ٣٦.

[10] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٢، ص٣٧٥.

القرآن، فإن كان القرآن لا يؤثر فيه أصلاً فمثله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[1]، "وإنما المحرك لما في القلب ما يناسبه"[2]، بل صاحب القلب تؤثر فيه الكلمة من الحكمة يسمعها"[3]. ثم قال: قال سهل رحمه الله:"وكل تأثر ووجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل"[4].

وتلاوة القرآن حق تلاوته في تصور الغزالي تكون بما يلي:

أن يشترك في القارئ اللسان والعقل والقلب:

فحظ اللسان: تصحيح الحروف بالترتيل.

وحظ العقل: تفسير المعاني.

وحظ القلب: الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار، فاللسان يرتل، والعقل يترجم، والقلب يتعظ.

الترقي:

قصد بها أن يترقى القارئ إلى أن يسمع الكلام من الله ﷻ لا من نفسه، ولهذا فإن الغزالي قد صنف القراءة إلى درجات.

فدرجات القراءة ثلاث:

أدناها: أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله ﷻ واقفاً بين يديه وهو ناظر إليه، ومستمع منه، فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتملق والتضرع والابتهال. وهذه درجات الغافلين.

الثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله ﷻ يراه ويخاطبه بألطافه ويناجيه بإنعامه وإحسانه فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم. وهذه درجة أصحاب اليمين.

الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم وفي الكلمات الصفات فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث إنه منعم عليه بل يكون مقصور الهم على المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره. وهذه درجة المقربين. وهي درجة

---

[1] سورة البقرة: ١٧١.

[2] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٢، ص٣٧٧.

[3] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٢، ص٣٧٦.

[4] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٢، ص٣٨١.

خاصة لأهل التصوف والكشف[1].

قال بعض الحكماء كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة حتى تلوته، كأني أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه، ثم رفعت إلى مقام فوقه، فكنت أتلوه كأني أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله ﷺ، ثم جاء الله بمنزلة أخرى، فأنا الآن أسمعه من المتكلم به، فعندها وجدت له لذة ونعيماً لا أصبر عنه. وقال عثمان وحذيفة رضي الله عنهما: لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن، وإنما قالوا ذلك، لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم في الكلام. وبمشاهدة المتكلم دون ما سواه يكون العبد ممتثلاً لقوله ﷻ: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾[2] فمن لم يره في كل شيء فقد رأى غيره[3].

التبرِّي:

عنى الغزالي بهذا الموضوع عناية تامة، وذلك لما أمر القارئ بأن يتبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بين الرضا والتزكية، فإذا تلا آيات الوعد والمدح للصالحين، فلا يشهد نفسه عند ذلك، بل يشهد الموقنين والصديقين فيها، ويتشوف إلى أن يلحقه الله ﷻ بهم، وإذا تلا آيات المقت وذم العصاة والمقصرين شهد على نفسه هناك، وقدر أنه المخاطب خوفاً وإشفاقاً. ولذلك كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: اللهم إني أستغفرك لظلمي وكفري، فقيل له هذا الظلم فما بال الكفر، فتلا قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[4]،[5].

كل ذلك قصد منه الغزالي عدم ركون المرء إلى نفسه وعمله، فإن ركن إلى ذاته وعمله خمل وكسل، والمؤمن يجب أن يكون دائم الطلب لرحمة الله.

فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل

شنَّع الإمام الغزالي على القائلين باقتصار وحصر التفسير القرآني بالمأثور، وما سُمِع فقط من رسول الله ﷺ، معتمدين على قوله ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام الترمذي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: "من قال في القرآن بغير علم

---

[1] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٧٧.

[2] سورة الذاريات: ٥٠.

[3] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٧٧.

[4] سورة إبراهيم: ٣٤.

[5] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٧٧ – ٣٧٨.

فليتبوأ مقعده من النار"[1] وفي رواية أخرى عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: "اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم، فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار"[2]. وفي رواية أخرى: "من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ"[3].

رد الغزالي على من أساء تأويل الحديث بالنقاط الآتية:

النقطة الأولى: بدأ الغزالي حديثه بامتداح المتصوفة الذين توسعوا في فهومهم منطلقين من أن علوم القرآن لا حصر لها ولا قيد، **حيث عرفوا أن معاني القرآني لا يمكن حصرها، لأن العلوم كلها داخلة في أفعال الله وصفاته، وأن من مهمات القرآن أن يبين ذلك ويشرحه، وهو أمر لا حد له ولا حصر**، فقال: "فاعلم أن من زعم أن لا معنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه، وهو مصيب في الإخبار عن نفسه، ولكنه مخطئ في الحكم برد الخلق كافة إلى درجته التي هي حده ومحطه، بل الأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن متسعاً لأرباب الفهم"[4]. وقال رحمه الله: "وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله ﷻ وصفاته وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته وهذه العلوم لا نهاية لها وفي القرآن إشارة إلى مجامعها والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن ومجرد ظاهره التفسير لا يشير إلى ذلك بل كل ما أشكل فيه على النظار واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها فيكف يفي بذلك ترجمة ظاهره وتفسيره"[5].

ثم أخذ يحشد الأخبار والآثار الدالة على أن في معاني القرآن متسعاً لأرباب الفهم وأنها كثيرة لا حصر لها، من ذلك ما أورده من الأحاديث:

الخبر الأول: موضوعه أن القرآن يحوي معاني ظاهرة وباطنة، لقوله ﷺ: "إن للقرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً"[6]. يقول زيد بن علي معلقاً: "واعلموا رحمكم الله أن للقرآن ظهراً

---

[1] أخرجه الترمذي في **سننه**، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه. وقال: "هذا حديث حسن صحيح".

[2] أخرجه الترمذي في **سننه**، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه. وقال: "هذا حديث حسن".

[3] أخرجه الترمذي في **سننه**، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه.

[4] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٧٨-٣٧٩.

[5] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٧٩.

[6] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٧٩.

وبطناً وحداً ومطلعاً فظهره تنزيله، وبطنه تأويله، وحده فرائضه وأحكامه، ومطلعه ثوابه وعقابه"[1].

الخبر الثاني: موضوعه أن هناك حكمة عظمى من الترديد لآية واحدة، وأن ذلك يدل على أنها تشمل على معاني عظيمة كثيرة، وإلا لم يكن للترديد من معنى، وقد اعتمد الغزالي على هذا الحديث: "وقد ردَّد رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم عشرين مرة"[2]. وهذا الترديد لا يكون إلا لتدبره باطن معانيها وإلا فترجمتها وتفسيرها ظاهر لا يحتاج مثله إلى تكرير.

الثالث: هذا الأثر جاء به عن طريق الصحابة، حيث قال: "وقال علي كرم الله وجهه: "لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب"[3]. فما معناه وتفسير ظاهرها في غاية الاقتصار.

الرابع: جاء به عن الصحابه أيضاً، قال: "وقال ابن مسعود ﷺ: "من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن"[4]. وذلك لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر.

النقطة الثانية: وهي تدور حول البطلان القطعي من أن الرسول الكريم ﷺ قد أراد حصر التفسير المقبول بما سمع منه، وأنه نهى عن التفسير بالرأي، ثم جاء بأدلة عقلية تبين بطلان هذا الرأي، قال الغزالي: "وباطل قطعاً أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحد في القرآن إلا بما يسمعه لوجوه:

أحدها: أنه يشترط أن يكون ذلك مسموعاً من رسول الله ﷺ ومسنداً إليه وذلك مما لا يصادف إلا في بعض القرآن فأما ما يقوله ابن عباس وابن مسعود من أنفسهم فينبغي أن لا يقبل ويقال هو تفسير بالرأي لأنهم لم يسمعوه من رسول الله ﷺ وكذا غيرهم من الصحابة ﷺ.

والثاني: أن الصحابة والمفسرين اختلفوا في تفسير بعض الآيات فقالوا فيها أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها وسماع جميعها من رسول الله ﷺ محال ولو كان الواحد مسموعا لرد الباقي فتبين على القطع أن كل مفسر قال في المعنى بما ظهر له باستنباطه حتى قالوا في الحروف التي

[1] http://izbacf.org/page_display.php?book_id=157&page_num=73

[2] رواه أبو ذر الهروي في معجه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف، انظر: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٧٠، وص٣٧٩.

[3] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٧٩.

[4] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٧٩.

في أوائل السور سبعة أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها فقيل إن الر هي حروف من الرحمن وقيل إن الألف الله واللام لطيف والراء رحيم وقيل غير ذلك والجمع بين الكل غير ممكن فكيف يكون الكل مسموعاً.

والثالث: أنه ﷺ دعا لابن عباس ﷺ وقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[1] فإن كان التأويل مسموعاً كالتنزيل، ومحفوظاً مثله فما معنى تخصيصه بذلك.

والرابع: أنه قال ﷻ: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[2] فأثبت لأهل العلم استنباطاً، ومعلوم أنه وراء السماع وجملة ما نقلناه من الآثار في فهم القرآن يناقض هذا الخيال فبطل أن يشترط السماع في التأويل وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله[3].

وأما النهي فإنه يترل على أحد وجهين:

الوجه الأول: أن يكون له في الشيء رأي وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه وليحتج على تصحيح غرضه ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى. فيكون قد فسر برأيه أي رأيه هو الذي حمله على ذلك التفسير ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه، وتارة قد يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلاً من القرآن.

المثال الأول على فساد من يفسر برأيه: كمن يدعو إلى الاستغفار بالأسحار فيستدل بقوله ﷺ: «تسحروا فإن في السحور بركة»[4] ويزعم أن المراد بالتسحر الذكر[5]، وهو يعلم أن المراد به الأكل.

المثال الثاني: كالذي يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي فيقول: قال الله ﷻ: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾[6] ويشير إلى قلبه ويومئ إلى أنه المراد بفرعون"[7]. وهذا الجنس قد يستعمله

---

[1] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، وذكره ابن ماجه في **سننه**، المقدمة، باب فضل ابن عباس. وعن ابن عباس قال: إن رسول الله ﷺ وضع يده على كتفي ثم قال: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل. صحيح، أخرجه الحاكم وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، ورواه البيهقي في الدلائل.

[2] سورة النساء: ٨٣.

[3] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٨٠.

[4] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الصوم، باب بركة السحور من غير إيجاب؛ ومسلم في كتاب الصوم، باب فضل السحور وتأكيد استحبابه واستحباب تأخيره وتعجيل.

[5] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٨١.

[6] سورة الذاريات: ١٧.

[7] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٨١.

بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسيناً للكلام وترغيباً للمستمع وهو ممنوع، وقد تستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل، فيتزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنها غير مرادة به[1].

فهذه الفنون أحد وجهي المنع من التفسير بالرأي ويكون المراد بالرأي الرأي الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح والرأي يتناول الصحيح والفاسد والموافق للهوى قد يخصص باسم الرأي.

والوجه الثاني: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير. فهو يعيب على المفسرين بظاهر اللغة، ويقول: "فالنقل والسماع لا بد منه في ظاهر التفسير أولاً ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط"[2].

"فمن لم يحكم بظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه ودخل في زمرة من يفسر بالرأي، فالنقل والسماع لا بد منه في ظاهر التفسير أولاً ليتقي به مواضع الغلط ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط"[3].

والغرائب التي لا تفهم إلا بالسماع كثيرة ونحن نرمز إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها ويعلم أنه لا يجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أولا ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يدعي البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب أو يدعي فهم مقاصد الأتراك من كلامهم وهو لا يفهم لغة الترك[4].

فإن ظاهر التفسير يجري مجرى تعليم اللغة التي لا بد منها للفهم وما لا بد فيه من السماع فنون كثيرة منها الإيجاز بالحذف والإضمار كقوله ﷻ: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا﴾[5]

---

[1] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٨١.

[2] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٨١.

[3] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٨١.

[4] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٨١.

[5] سورة الإسراء: ٥٩.

معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها"[1].

فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة و لم تكن عمياء و لم يدر أنهم بماذا ظلموا غيرهم أو أنفسهم وقوله ﷻ: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[2] أي حب العجل فحذف الحب"[3]. وقوله ﷻ: ﴿إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾[4] أي ضعف عذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى فحذف العذاب وأبدل الأحياء والموتى بذكر الحياة والموت **وكل ذلك جائز في فصيح اللغة.**

الأسس الرئيسة التي يعتمد عليها الغزالي في فهمه للقرآن وتفسيره:

الأساس الأول: عدم تجاوز الدلالة العربية وتجاهل قيمتها في فهم معاني الألفاظ القرآنية، وهنا يضرب الغزالي أمثلة كالباطنية الذين يدعون إلى مجاهدة القلب القاسي، فيقولون: قال الله ﷻ: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾[5]، ففرعون عندهم إشارة إلى القلب، ويشير الواحد منهم إلى قلبه، ويومئ إلى أنه المراد بفرعون"[6]. وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسيناً للكلام، وترغيباً للمستمع، وهو ممنوع، وقد تستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتغرير الناس، ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل، فينْزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور، يعلمون قطعاً أنها غير مرادة به، فهذه الفنون أحد وجهي المنع من التفسير بالرأي، ويكون المراد بالرأي: الرأي الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح، والرأي يتناول الصحيح، والفاسد والموافق للهوى، قد يخصص باسم الرأي[7].

وهذا ناتج عن عدم تدبر القرآن، فيفسره بما يخطر له من بادئ الرأي دون إحاطة بجوانب الآية ومواد التفسير مقتصراً على بعض الأدلة دون بعض،كأن يعتمد على ما يبدو في الظاهر من وجه العربية فقط[8].

---

[1] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٨١.
[2] سورة البقرة: ٩٣.
[3] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٨١.
[4] سورة الإسراء: ٧٥.
[5] سورة الذاريات: ١٧.
[6] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٨١.
[7] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٨١.
[8] بن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١، ص٢٨.

الأساس الثاني: معرفة مقاصد العرب من كلامهم وعاداتهم في الخطاب، وهذا ما أكد عليه ابن عاشور بقوله: "أما العربية فالمراد منها معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم سواء حصلت تلك المعرفة بالسجية والسليقة، فالقرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقاً لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم لمن ليس بعربي بالسليقة، ويعنى بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة، والتصريف، والنحو والمعاني والبيان"[1].

الأساس الثالث: الاهتمام بالسياق القرآني في بيان المعنى. ونقصد بالسياق: الجو العام الذي يحيط بالكلمة وما يكتنفها من قرائن وعلامات. فالسياق له أثر كبير على مقصود دلالة المتكلم أو الكلمة، ذلك أن الكلمة الواحدة والجملة الواحدة قد تحمل مدلولين متناقضين تماماً دون أن تختلف الكلمة في بنائها الداخلي، وإنما الذي تغير هو السياق والقرائن المحيطة.

ولهذا فقد عد السياق شرطاً مهماً في التفسير. فالقرآن قد نظم بمشيئة إلهية على شكل سور، تشكل كل سورة منه وحدة قرآنية مستقلة، كما أن موضع كل كلمة وجملة وآية في القرآن، قد حدد تحديداً ربانياً في سياق السورة وبنيتها لإبراز المعنى المراد. والغزالي يحذر من الفهم التجزيئي للقرآن، أو ما يسمى بـــ"الفهم النصفي" أو "النظرة التجزيئية" لمعاني الآيات. وذلك حين استغل بعض الباطنية الوعاظ "مقاصدهم الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة، فيتزلون القرآن وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنها غير مرادة"[2]. كقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ [3] معناه: آتينا آل صالح "ثمود" الناقة كآية دَالَّة عَلَى وَحْدَانِيَّة مَنْ خَلَقَهَا وَصِدْق رَسُوله الَّذِي أُجِيبَ دُعَاؤُهُ فِيهَا ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أَيْ كَفَرُوا بِهَا، وَمَنَعُوهَا شِرْبَهَا، وَقَتَلُوهَا، فَأَبَادَهُمْ اللَّه عَنْ آخِرهمْ، وَانْتَقَمَ مِنْهُمْ، وَأَخَذَهُمْ أَخْذ عَزِيز مُقْتَدِر، فالناظر إلى ظاهر العربية وليس السياق يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة، ولم تكن عمياء، ولم يدر أنهم بماذا ظلموا غيرهم أو أنفسهم استحقوا الوبال.

الأساس الرابع: الاعتقاد بأن التكرار لا مكان له في القرآن، قال الغزالي في مورد تعليقه على قوله تعالى:﴿الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾[4] "ولا تظنن أنه مكرر، فلا تكرر في القرآن، إذ حد المكرر

[1] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير** (بيروت: مؤسسة التاريخ، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م)ج١، ص١٦.

[2] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٨١.

[3] سورة الإسراء: ٥٩.

[4] سورة الفاتحة: ٣.

ما لا ينطوي على مزيد فائدة"[1].

الأساس الخامس: لا ترادف في أسماء الله الحسنى، قال الغزالي: في مورد تعليقه على قوله تعالى:﴿الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ [2] "ولا تظنن أنه مكرر، فلا تكرر في القرآن، إذ حد المكرر ما لا ينطوي على مزيد فائدة"[3].

الأساس السادس: تبني النهج الباطني في التفسير، وهذا في نظر الإمام الغزالي ضرورة للوصول إلى حقائق معاني القرآن فقد قام الغزالي بتقسيم الأعمال إلى ظاهرة وباطنة، حتى في أغلب مواضيع التعبد لله، ويعد هذا التقسيم في تصور الغزالي ضرورة، لأن الناس انصرفوا عن الباطن إلى الظاهر من الأمور المتعلقة بالقرآن، فهناك اهتمام زائد بالرسوم الشكلية كالقراءة بالتجويد والنطق السليم والانشغال عن المعاني الباطنية إلى علوم الفقه والكلام والشعر وغيرها. فهذه في تصوره هي تلاوة الغافلين وهي مذمومة باعتبارها تتخلف عن العمل به، ذلك أن القرآن ينبغي لقارئه أن يتلقاه بالعظمة والهيبة والإجلال، وهو هنا يستشهد بقول أنس بن مالك ﷺ: رب تال للقرآن والقرآن يلعنه، وبقول أحدهم: إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم يقول: ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[4]وهو ظالم نفسه، وقوله: ﴿نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ﴾[5]وهو منهم..

وفي تصوري هذه خطيئة وليس خطأ في حق كتاب الله ﷻ، وتعطيل وإلغاء لكلام الله، لأن القرآن كله لفظاً ومعنى ونظماً وقاء وشفاء، فمن قرأه بحروفه وكلامه ولفظه كالعجمي فقد شفي، ومن فهم كلامه كالعربي فقد شفي، ومن تدبره لفظاً ومعنى ونظماً كالمتخصص فقد شفي، ومن عمل به فقد اهتدى وشفي. وهو في تصوري مثل الدواء الذي نشربه ولا نعرف مكوناته، ونستفيد منه، لأن الله تعالى وضع فيه خاصية الشفاء، يتناوله المريض فيشفيه الله عز وجل.

لكن القادر على التدبر والتفهم ولا يفعل، فقد لوّمه الله وعاتبه، لِمَ لَمْ يتدبر القرآن، قال تعالى:﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾[6]. يقول عبد

[1] الغزالي، **جواهر القرآن**، ص٣٩.
[2] سورة الفاتحة: ٣.
[3] الغزالي، **جواهر القرآن**، ص٣٩.
[4] سورة هود: ١٨.
[5] سورة آل عمران: ٦١.
[6] سورة النساء: ٨٢.

الرحمن حسن حبنكة: "وفي الاستفهام الإنكاري تلويم لهم على ترك التدبر، لأن تدبر القرآن كفيل لصاحبه بكل خير، فالتدبر المنشود يقصد منه البحث عن الحقيقة، والمقرون بالإخلاص سوف يكشف لذوي الاستعداد من الناس أن هذا القرآن حق كله، وأنه مترل من عند الله تعالى، ما في ذلك ريب أنه لو كان من عند غير الله لاشتمل على اختلاف كثير مع الواقع والحقيقة"[1].

خاتمـــــة:

في نهاية هذا البحث نود أن نشير إلى أهم النتائج التي توصلنا إليها على شكل نقاط رئيسة:

أولاً: انبثق أداء الغزالي في التعامل مع القرآن من إدراكه الكبير والعميق لغايات القرآن ومقاصده وأهدافه الكبيرة.

ثانياً: لم يكن الغزالي أول من كتب في هذا المجال، علماء كثر سبقوا ولحقوا الغزالي كتبوا عن القرآن، وعالجوا مسألة آداب القارئ للقرآن، ككتاب فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام، وكتاب أخلاق حملة القرآن للإمام أبو بكر الآجري[2]، وهو مصنف قيِّم، والقرطبي في مقدمة تفسيره بيَّـــن فضائل القرآن وآداب التلاوة، ولا ننسى ما صنفه النووي في كتاب المعروف التبيان في آداب حملة القرآن، وغيرهم كثير كالبرهان للزركشي والسيوطي في إتقانه. لكن المدقق يجد أن الذي يغلب على هذه الكتابات طابع الرواية والسرد، لأنها جمعت أو لخصت أو اكتست بالطابع الفقهي. أما كتابات الغزالي فللموضوعية نقول: بأنها كتابات تميزت بالدقة والعمق، فالأسلوب الذي سلكه الغزالي قائم على الاستقراء والتحليل العميق والاستنباط القوي لأفكار جديدة. وحينما نقول إن كثيراً من الكتابات سبقت الإمام الغزالي في هذا الموضوع، فإننا نؤكد بأن له إضافات قوية إلى كلام العلماء السابقين، الذي طرحوا الآية

---

[1] عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: **قواعد التدبرالأمثل لكتاب الله عز وجل**، (دمشق: دار القلم، ط٢، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م) ص١٠-١١. وانظر: د. رضوان جمال الأطرش، **عرض منهجي في التفسير التحليلي- سورة النساء نموذجاً**، (كوالالمبور: مركز البحوث في الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، ط١، ٢٠٠٤م) ص٢٩٩.

[2] قسَّم الكتاب إلى أبواب، وجعل لكل باب عنوانًا، وأورد تحته ما يناسبه من أحاديث وآثار.ثم عقَّب على كثير من الأحاديث والآثار التي أوردها بالشرح والبيان، كما أنه لم يخل هذه التعليقات من توجيهات ونصائح ينتفع بها أهل القرآن.و لم يلتزم الصحة فيما يورده من النصوص.و لم يرتب النصوص التي أوردها ترتيبًا محددًا.وبلغ عدد النصوص المسندة(٩٦) نصًّا، تتنوع بين أحاديث مرفوعة وآثار موقوفة على الصحابة والتابعين. انظر هذا الموقع: http://www.sahab.net/sahab/showthread.php?threadid=314949

أو النص ثم اكتفوا ببيان موجز ما ترشد إليه الآية أو النص المقروء. هذا لا يعني أن الغزالي لم يستفد ممن سبقوه في هذا المجال، فقد استفاد من رسالة الآجري الموسومة بأخلاق حملة القرآن، والذي ذكر فيها جملة رائعة من الآداب يوجهها إلى طلاب وحفظة القرآن ومعلميهم ومقرئيهم. لكن ما ميز الغزالي أنه يفصَّل ويحلِّل ويؤكِّد على ضرورة ربط القرآن بالعمل، ومن تعامل مع القرآن شكلاً وتلاوة عُدَّ من المقصرين الغافلين، مؤيداً حكمه بأدلة عديدة لأقوال العلماء، غايته من ذلك إيجاد جيل يرتقي إلى مستوى القرآن، ويقدر له قدره.

ثالثاً: إن منهج الغزالي في فهم الآيات وتفسيرها، لا يقتصر على التفسير بالمأثور، بل إنه عَدّ الاقتصار عليه مانعاً من موانع الفهم، ولهذا فحينما كان يبدي فكرة ما، فإنه يحشد لها كثيراً من الآيات، ثم ينتقل بعدها ليؤيدها بكثير من الأحاديث، ثم يزودها بأقوال من الصحابة، ثم يختمها بأقوال الصالحين، ثم يجتهد رأيه ويأتي بأدلة منطقية وعقلية ليجعل من فكرته فكرة صالحة للتبني والاستشهاد. والناظر في تحليله لمسائل التفهم والحواجب التي تمنعه، ومسألة التأثر والخصوصية والترقي والتبري يؤيد صحة هذا الحكم الذي اتبعه الإمام الغزالي.

رابعاً: بالنسبة لمدى صلاحية هذا المنهج في التعامل مع القرآن قراءة وفهماً وتفسيراً. فإني أعتقد أنه صالح ولكنه صعب التطبيق، وهذا من أسرار الإحجام من كثير من العلماء عن التأثر بما كتبه الغزالي، فالذي تبناه الغزالي من أسس للتعامل مع القرآن نتج عن تجربة ذاتية وخبرة وممارسة شخصية، جاء بعد رياضة شاقة وتدريب مستمر، ولهذا فإننا نقول: إن ما قرره الغزالي ليس سهلاً على الناس والعوام اتباعه، فهو صعب المنال لما احتوى على مشقة وشدة بالغة. ناهيك عن صدود الناس عن منهج الغزالي الذي اعتمد على كثير من الأحاديث الموضوعة والإسرائيليات، كل ذلك ألغى شيوع هذا العمل القيم وعطل انتشاره.

ظهر لنا من خلال هذه الدراسة أن هناك تعارض بيـــّن بين الفقه والتفسير والشعر والتصوّف، باعتبار أن هذه التخصصات تهتم بظاهر النص وأن عناية التصوف بباطنه.

خامساً: هناك ثلاثة جوانب اعتمد عليهما الغزالي في تناوله لهذا الموضوع:

الجانب الأول: **الجانب المعرفي**: والذي يقتصر فيه القارئ على الألفاظ والأحكام الشرعية والمعلومات والمفاهيم حتى تصبح جزءً من شخصيته وتكوينه، وهذا جانب مذموم.

الجانب الثاني: الجانب المهاري: وفي هذا الجانب يركز القارئ على مهارة التلاوة، فيتدرب على التلاوة والفصاحة والنطق السليم وإخراج كل حرف من مخرجه وينشغل بجمال الصوت والترتيل، وهذا أيضاً جانب مذموم عند الغزالي.

الجانب الثالث: وهو الجانب الانفعالي: ويعتمد هذا الجانب على درجة التفاعل بين القارئ والمعاني الباطنية، مما يشعر بالمسئولية الملقاة على عاتق القارئ، فلو كانت القراءة خالية من الروح والانفعال ودون تأثر بها، ولا تفاعل، كانت القراءة خالية من الروح، وإذا تناولناها بتفاعل حققت ما يأتي :

- تعويدهم على تعظيم القرآن الكريم وإجلاله.
- فرض هيمنة القرآن الكريم على نفس القارئ ومشاعره وسلوكه حتى يكون أمره ونهيه فوق كل رغبة واجتهاد.
- يكون ذلك بتدبر القرآن الكريم وتفهم معانيه الباطنة، والتأمل في معاني الآيات التي تتلى.
- توظيف معاني الآيات الباطنة في تحسين السلوك وإصلاح العمل.

قائمة بأسماء المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. ابن خلدون، عبد الرحمن، **مقدمة ابن خلدون**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط٨، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).

٢. ابن عاشور، سماحة الشيخ محمد الطاهر، **تفسير التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور**، (بيروت: مؤسسة التاريخ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

٣. ابن كثير، إسماعيل، **مختصر تفسير ابن كثير**، اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني، (بيروت: دار القرآن الكريم، ط٧، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م).

٤. الأطرش، رضوان جمال، **عرض منهجي في التفسير التحليلي– سورة النساء نموذجاً**، (كوالالمبور: مركز البحوث في الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، ط١، ٢٠٠٤م).

٥. جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، **أساس البلاغة**، (بيروت: دار بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).

٦. الغزالي، الإمام أبو حامد محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين**، تحقيق: سيد عمران، (القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٥هـ/١٩٩٢م).

٧. الغزالي، حجة الإسلام محمد بن محمد أبو حامد، **جواهر القرآن ودرره**، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط٥، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

٨. المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد البصري، **رسالة المسترشدين**، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: الأستاذ عبد الفتاح أو غدة، (حلب، القاهرة: دار السلام، ط٦، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

٩. الميداني عبد الرحمن حسن حبنكة، **قواعد التدبرالأمثل لكتاب الله عز وجل**، (دمشق: دار القلم، ط٢، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م) ص١٠-١١.

http://izbacf.org/page_display.php?book_id=157&page_num=73
http://www.alnilin.com/vb/showthread.php?t=15490
http://www.sahab.net/sahab/showthread.php?threadid=314949
http://www.sunnah.org/arabic/Afaaq.html